

[كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ۝٢٣]

[كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ]: [كَلَّا] كلمة ردع، وزجر، ولعلها لم تقل لنبينا ﷺ في القرآن كله إلا في هذا الموضع، والمشار إليه في قوله [إِنَّهَا]: إما هذه الواقعة التي جرت، ففيها تذكرة. وإما أن المراد بذلك هذه الآيات التي تلونها وأنزلناها، وهذا أقرب لدلالة ما بعدها .

[فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝١٢]: يعني فمن أراد أن يتعظ، ويدكر، فهاهي بين يديه. قال بعضهم: إن مرجع الضمير في قوله [فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ] إلى الله ﷻ، ولكن الأليق بالسياق أن يكون المراد هذه الآيات، بدلالة ما بعدها، لأنه قال: [فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦]، فهذه التذكرة هي هذه الآيات المتلوة، التي حفظت هذه الواقعة، وبهذا نجمع بين القولين.

[فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣]: أي القرآن المتلو، في صحف مكرمة، يعني أنه مكتوب في صحف كريمة، شريفة

[مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤]: أي في منزلة عالية، رفيعة، بعيدة عن الدنس .

[بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥]: قيل إن السفارة هم كتبة المصحف، يعني القراء كتبة الوحي، أصحاب رسول الله ﷺ، وإلى هذا ذهب قتادة، رحمه الله. وذهب ابن عباس، رضي الله عنهما، في الرواية المشهورة عنه، إلى أن المراد بالسفيرة الملائكة، وروي من طريق آخر عنه أنهم أصحاب محمد ﷺ، وهي رواية قتادة عنه، والرواية الأخرى المقدمة، هي رواية العوفي عنه. والأقرب أن المراد بالسفيرة الملائكة، وإنما سمي الملائكة سفرة، لأنهم سفراء بين الله وبين أنبيائه .^(١)

ووصفت هذه الصحف بأنها (مكرمة) و (مرفوعة) و (مطهرة) لأنها صحف الملائكة التي يستنسخون بها الوحي ويكتبونه فيها. فلا شك أن ما بأيدي الملائكة رفيع القدر، بعيد عن الدنس.

(١) تفسير الطبري (١٠٩/٢٤).

[كِرَامٍ بَرَرُوا ١٦]: وصف الله تعالى الملائكة بوصفين. **[كِرَامٍ بَرَرُوا]**، كما قال في الآية الأخرى: **[كِرَامًا كَثِيرًا**

١١] والكريم هو الشريف، وأصل البر ما دل على كثرة الخير، فالبار هو كثير الخير. ولهذا سمي البر

براً لسعته. وقد وصف الله عباده الصالحين بأنهم أبرار، ولم يصفهم بأنهم بررة، كما قال الله تعالى: **[إِنَّ**

الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢] {المطففين: ٢٢}، أما الملائكة فقد وصفوا بأنهم بررة، لكثرة طاعتهم لله، قال الله **عَلَيْكَ:**

[يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠] {الأنبياء: ٢٠}، (لا يسمنون)، (لا يستحسرون)، وقال: **[لَا**

يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦] {التحريم: ٦} عليهم صلوات الله وسلامه، وفي هذا ملحظ

لطيف، ذكره الحافظ ابن كثير، رحمه الله، وهو أنه ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله، وأقواله، على

السداد، والرشاد. فإذا كان الملائكة، سفراء الله إلى أنبيائه، الذين يحملون الصحف المكرمة، المرفوعة،

المطهرة، هذا وصفهم **[كِرَامٍ بَرَرُوا]**، فينبغي لحامل القرآن من عباد الله، أن يكون على طريق الرشاد، وعلى

سبيل السداد؛ احتراماً، وصوناً لهذا للكلام الذي بين جنبيه.

[قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ١٧]: هذا دعاء من الله **عَلَيْكَ** على الإنسان. والدعاء منه سبحانه حكم. ولا يستقيم في

هذا المقام أن نقول جنس الإنسان، بل ينبغي أن نخصه بالكافر. وقد لاحظ ابن عاشور، رحمه الله، أن

ذكر الإنسان في القرآن المكي، غالباً ما يراد به الإنسان الكافر، كما في قول الله تعالى: **(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ**

لِطَٰغِيٍّ ٦] {العلق: ٦}.

فقوله **[قِيلَ]** دعاء على الكافر بالقتل. والدعاء عليه بالقتل المراد به اللعن، لأن ذلك طرد، وإبعاد له عن

رحمة الله.

وقوله: **[مَا أَكْفَرُهُ]** تحتل (ما) معنيين:

أن تكون تعجبية: أي ما أشد كفره، فالله خلقه، ورزقه، وأعدده، وأمدده، ثم يكفر به! أو تكون

استفهامية: يعني أي شيء أكفره؟ لماذا كفر؟ وكأنها تعجبية أوقع.

[مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ١٨]: هذا الاستفهام للتقرير؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعلم، والمراد ما أصل خلقه؟.

[مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ١٩]: والمراد هنا: من سوى آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، لأن آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** خلق من قبضة من تراب،

والمراد بالنطفة: هو نطف المنى ودفقته. هذا أصل خلق كل إنسان، سوى الأبوين؛ آدم وحواء، ما

يقذفه الرجل في رحم الأنثى، يكون متن الریح، يستحي من ذكره. وقد جاء العلم الحديث لیبين أن حال الإنسان أحقر حتى مما كان يدرك من مجرد الصورة الظاهرة للنطفة؛ فالإنسان یخلق من خلية لا ترى إلا بالمجاهر الدقيقة، فهذه النطفة، أو الدفقة تحتوي على ملايين الحيوانات المنوية. فتأمل بداية خلق الإنسان! فما الذي يجعله يشمخ بأنفه، ويستنكف عن عبادة ربه؟

[**فَقَدَّرَهُ**] بعد أن خلقه، أمده، وأعدّه، أعطاه الآلات، والأدوات التي یقدر فيها على الفعل، والكسب والحراث، والضرب في الأرض .

[**ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ**]: قيل في معنى [**السَّبِيلَ**] قولان:

إما أن المراد بالسبيل: طريق خروجه من بطن أمه. وإلى هذا ذهب ابن عباس رضي الله عنهما^(٢). وهو أمر مدهش! فهذا الجنين الذي احتواه الرحم تسعة أشهر، یسهل الله تعالى مخرجه من هذه المخارج الضيقة! ويجري من التغيرات العضوية على الرحم، ومخرج الولد، ما يجعله يتسع، لیخرج منه هذا الكائن.

وقيل: المراد بالسبيل: طريق الحق أو الباطل. ومعنى [**يَسَّرَهُ**] أي مهد له ذلك السبيل، وبين له الخير

من الشر، كما قال في الآية الأخرى: [**فَسَنِّيئِرُهُ لِلْيَسْرِى**] {الليل: ٧} وقال [**فَسَنِّيئِرُهُ لِلْعُسْرِى**] {

{الليل: ١٠} وقال [**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**] {الإنسان: ٣} . فهذه الآيات تؤيد المعنى

الثاني، وإلى هذا ذهب مجاهد، رحمه الله^(٣)، ويشهد له قول الله ﷻ: [**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**] {البلد: ١٠}

يعني الطريقين؛ طريق الخير، وطريق الشر. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ لأنه لا تعارض بينهما.

[**ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ**]: يعني بعد أن طوى هذا العمر، سالكاً طريق الخير، أو الشر، أماته، لأن الله تعالى

قضى بالموت على كل حي، حتى ملك الموت يموت، فلا يبقى إلا الله الواحد القهار. والموت أمر

وجودي، كما قال الله تعالى: [**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**] {الملك: ٢} فالموت إذاً أمر وجودي لأنه مخلوق.

ومعنى [**فَأَقْبَرَهُ**] أي أمر بدفنه؛ وفي اللغة يقال "قابر" ويقال "مقبر" فالقابر هو الذي يباشر الدفن،

(٢) تفسير الطبري (١١١/٢٤).

(٣) تفسير الطبري (١١٢/٢٤).

والمقبر هو الذي يأمر بالدفن^(٤). فهنا قال: [فَأَقْبَرَهُ]، ولم يقل " فقبره ". والدفن سنة كونية، ولهذا لما قتل ابن آدم الأول أخاه [فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ] قَالَ يَوَيْلَئِكَ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ [المائدة: ٣١]، فلم يزل بنو آدم يقبرون موتاهم، إلا من طمس الله ﷻ فطرته، من الذين يحرقون الموتى، لكنهم بعد إحراقهم للموتى يدفنون رمادهم .

[ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرُهُ ﴿٢٢﴾]: أي بعثه وأحياه بعد موته. وقوله [إِذَا سَاءَ] ليس المراد أنه قد يشاء أن ينشره، وقد لا يشاء ذلك؛ لأنه لا بد من البعث، وإنما المراد زمن بعثه، يعني إذا شاء أن ينشره أنشره في الوقت المعين. ولو تأملنا في هذه الآيات، لوجدنا أن العطف يقع تارة (بشم) وتارة (بالفاء) فمن الناحية البلاغية، سنجد أن العطف جاء (بالفاء) فيما يقصد به التعقيب المباشر، و(بشم) فيما يفصله عما قبله تراخي، قال [مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ] أعطاه الآلات التي يقدر فيها على قضاء مصالحه، بعد ذلك قال: [ثُمَّ أَسْبَلَ يَسْرَهُ ﴿٢٠﴾] لأنه جرى بعد ذلك فاصل، سواء على القول الأول؛ أنه خروجه من رحم أمه؛ لأنه أخذ يترقى في الخلق من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى أن كسا العظام لحماً، فأتى (بشم) لوجود فاصل زمني، أو على القول الثاني؛ أنه الخير، والشر، بأن يمضي عليه سنوات حتى يصبح مكلفاً، فهذا فاصل زمني يناسب أن يأتي بعده (بشم). ثم قال [ثُمَّ أَمَّانَهُ]، لأنه قد عاش ردحاً من الزمن، فناسب أن يأتي (بشم) التي تدل على تراخ وفاصل طويل، ثم قال: [فَأَقْبَرَهُ] أتى (بالفاء) لأن الفاصل بين الموت والدفن فاصل قصير. ثم قال: [ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرَهُ] أتى (بشم) لأن بين موت الإنسان وبعثه زمن طويل . فتأمل!

[كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ]: أي ليس الأمر كما يظن ذلك الكافر المنكر للبعث، أنه أدى ما عليه، وغير ذلك، كلا! فإنه لم يؤدي حق الله الذي افترضه عليه .

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: وصف القرءان بالتذكرة.

(٤) انظر: تاج، العروس لسان العرب، الصحاح (مادة: ق-ب-ر).

الفائدة الثانية: إثبات مشيئة العباد، وأفعالهم [فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾]، وفي هذا رد على الجبرية الذين يسلبون

العبد مشيئته، وفعله. فالعبد له مشيئة حقيقية، لكن مشيئته داخلة تحت مشيئة الله [لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾] {التكوير: ٢٨-٢٩}.

الفائدة الثالثة: كرامة كلام الله، وكرامة محله، وحملته.

الفائدة الرابعة: أن القرآن كلام الله، ليس كلام الملائكة، لقوله [سَفَرَةٍ] فوصفهم بالسفارة فمهمتهم

النقل فقط. ففيه الرد على المعتزلة الذين قالوا إن القرآن كلام محمد، أو جبريل، وليس كلام الله الصادر منه.

الفائدة الخامسة: إثبات الملائكة، ووصفهم بالكرامة وكثرة البر.

الفائدة السادسة: ذم الكافر الجاحد، والتعجيب من حاله .

الفائدة السابعة: بيان أصل الإنسان المهين.

الفائدة الثامنة: بيان فضل الله على الإنسان قدراً، وشرعاً، أما قدراً فللقوله [مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ

السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾]، وأما شرعاً فللقوله [ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾] على القول إن السبيل المراد

به طريق الحق والباطل .